

المال والنفوذ

نانسي سالفاتو

موقع قضايا أمن الأسرة

18 سبتمبر 2009

M-O-N-E-Y & Influence

By Nancy Salvato

Family Security Matters Website

ترجمة: علي الحارس

نانسي سالفاتو

رئيسة برنامج التثقيف
الدستوري في مشروع
الأساسيات.

قد لا يشتري المال الحب، أو يزيل الاضطراب من العالم: لكنه يساعد المجتمع حتما على أن يعمل بكفاءة. فالمال، والذي تُحدّد له قيمة ما، هو أداة التبادل التي نستخدمها عندما نريد أن نشترى شيئا. والعمل الذي نؤديه لكسب المال تُحدّد له قيمة

أيضا، وكلفة الشيء تعكس قيمة إنتاجه أو تطويره. ومعظم الناس يتفقون على أن المكافأة المالية هي الحافز الذي يحتاجونه كي يستثمروا وقتهم وجهدهم في العديد من الأعمال التي تتطلب منهم بذل الاهتمام. ومع وجود أسباب إضافية لانخراطنا في المشاريع، فإن الفائض المالي يمنحنا حرية أكبر لتخصيص طاقتنا إلى مساع إضافية.

في الإجابة عن سؤال حول ما إذا كان المال حقا أصل الشور، كتبت الروائية والمفكرة الأمريكية آين راند¹:

ليس المال أداة للمستجدين الذين يحصلون على منتجاتك بالدموع، ولا للصوص الذين يأخذونها بالقوة. وحدهم الذين ينتجون هم الذين يجعلون المال ممكنا. أفهدا هو الذي تنعته بالشر؟

إن المال يشكل حافزا لمن ينتج، وما من خطأ في ذلك. تقول الباحثة في مركز (هيريتيج) ربيكا هاغلين (Rebecca Hagelin): «الثروة والحرية الاقتصادية أمران مترابطان»، ففي

1 آين راند (Ayn Rand): فيلسوفة وروائية أمريكية (1905-1982): شددت في كتاباتها على فردية الإنسان، وكشفت عن المخاطر التي يواجهها الفرد من الجماعة عندما تتحول إلى كائن طفيلي يعتاش على إنجازات الأفراد دون مقابل. (المترجم)

المال والنفوذ

البلدان التي تتوفر فيها الحرية الاقتصادية نجد أن الثروة أكبر. ويمكن الافتراض هنا بأن ثمة خطأ متوارثا في عدم تحفيز من ينتجون من خلال تعسير عمليتي الإنتاج أو المكافأة.

لقد فهم الآباء المؤسسون للولايات المتحدة الأمريكية أن أصحاب الأملاك لهم مصلحة حقيقية في حماية ثمار جهودهم. وعندما يمر ذكر (الآباء المؤسسين) تتوارد إلى الذهن أسماء من ساهموا في كتابة الوثائق التأسيسية كالدستور مثلا. ومن بين هؤلاء من المهم أن نتذكر دائما معارضي الحزب الفيدرالي الذين كانوا يخشون من إعطاء سلطة مفرطة إلى الحكومة الفيدرالية ورفضوا المصادقة على الدستور الأمريكي دون إرفاقه بقانون الحريات. لقد كان هؤلاء صوتا للهواجس السائدة وأثروا بشكل عميق على الصيغة النهائية للدستور.

جاء في رسائل كاتو¹ (الرسالة 62):

أفهم من الحرية سلطة المرء على أفعاله. وحقه في التمتع بثمار ما يقوم به من عمل وفن وصناعة. وذلك ما دام بعيدا عن أذى المجتمع. أو أي عضو فيه. عبر الأخذ من هذا العضو أو منعه من التمتع بما يتمتع به هو نفسه. إن ثمار الصناعة الشريفة هي مكافأتها العادلة المتحققة له بفعل الإنصاف الطبيعي الخالد. وكذلك حقه الشرعي لاستخدامها بالطريقة التي يراها مناسبة: وهكذا. ومع الحدود السابقة. فإن كل فرد هو السيد والحكم الوحيد في أفعاله وممتلكاته الخاصة به. وهذه المنزلة لا يمكن لأي أحد أن يسلبه إياها إلا عبر الاغتصاب أو الموافقة الشخصية.

إن انخراط المرء في مجتمع تحكمه مفاهيم السياسة لا يعني التخلي عن

1) رسائل كاتو (Cato's Letters): مجموعة من المقالات ظهرت في الفترة (1720-1723) للكاتبين البريطانيين جون ترينتشارد (John Trenchard) وتوماس غوردون (Thomas Gordon). نادت هذه المقالات بالحرية وشجبت الاستبداد، وكان لها أثر كبير في اندلاع الثورة الأمريكية. (المترجم)

المال والنفوذ

الحقوق الطبيعية، وذلك لأن الحفاظ على تلك الحقوق كان السبب الجوهرى لهذا الانخراط: كما أن التعاون والحماية المشتركة هي الهدف العقلاني الوحيد لكل المجتمعات العقلانية.

ومن هنا ينبغي أن لا نتفاجأ عندما نرى أن من يملك المال يرغب باستخدامه للتأثير على ممثلي الشعب المنتخبين. وليس من غير العقلاني أن يقوم الأملأك بحماية استثماراتهم ومضاعفة قدرتهم على الإنتاج، وهو ما يحصل دائماً. فالثروة والاستثمارات هي التي تخلق الوظائف، وكلما كان لهم حرية أكبر في السعي إلى الثروة، كان المجتمع أكثر ثراءً. إن هذه ما هي إلا حقائق، والآباء المؤسسون أدركوا الحاجة إلى المحافظة على التوازن بين حاجات الأفراد ورفاهية المجتمع، دون أن ينسوا أبداً السبب الذي يدعو أياً كان إلى السعي للدخول في مجتمع تحكمه مفاهيم السياسة؛ وفي النهاية، لم يكونوا ساذجين في توقعاتهم.

جاء في كتاب (رؤية المؤسسين للشخصية والرئاسة) للكاتب سكوت ستريبلينغ (Scott Stripling):

بحسب رأي المؤسسين: لم يكن ممكناً الفصل بين مسألة الشكل الأمثل للحكومة ومسألة الطبيعة البشرية، وذلك لأن أصل الحكومة وهدفها ينبثق من الطبيعة البشرية، وحدود الطبيعة البشرية هي التي ترسم حدوداً لما يمكن توقعه بعقلانية من السياسة...

ويدعو ستريبلينغ إلى «أن نأخذ بجدية تحفظاتهم على أهلية الطبيعة البشرية للحكم الذاتي». كما يؤثر عن جورج واشنطن قوله: «عدة أشخاص فقط لديهم القدرة على مقاومة الإغراءات الكبرى».

المال والنفوذ

لقد توقع المؤسسون أن من يتم انتخابه لمنصب ما سيقسم على الالتزام بالدستور، ويتمثل دوره في أن يكون قادرا على مقاومة العاطفة التي تؤثر أحيانا على الناس. وأن يفكر مليا في كافة الآثار المترتبة على ما يطلب منه. وأن يحزم أمره عندما يتعارض تشريع ما مع الدستور أو الحقوق الفردية التي كُفِّ بحمايتها. كما وضع المؤسسون نظاما رقابيا يمنع أي جهة أو فرد من امتلاك سلطة زائدة عن الحد. وهكذا فإن من ناله الفساد بسبب سلطته أو نفوذه الخاص سوف يجد نفسه خارج المنصب بتأثير انتخاب المصوتين.

توقع المؤسسون كذلك أن من يملكون سلطة التعيين بأصواتهم الانتخابية سوف يعاملون مسؤوليتهم المدنية بجدية تكفي لانتخاب أشخاص فهموا الدستور وانعكس ذلك الفهم في أفعالهم. أما اليوم فيصعب تحديد من ارتكب خطأ أكثر: المنتخب أم المنتخب؟ لكن الواضح أن قسما كبيرا من هؤلاء الذين تم انتخابهم لا يفهمون غاية الدستور. أو أنهم ثملون بالسلطة والنفوذ؛ وإلا كيف أمكن تمرير خطة التحفيز الاقتصادي التي خلقت دينا مقداره تريليون دولار وهدفت إلى إعادة توزيع الثروة؟ كيف يمكن التصديق بأن المؤسسين كانوا يخططون لإعطاء الحكومة قدرا أكبر من السلطة والسيطرة على حجم المصروفات الحكومية من أموالنا؟

كتب الرئيس توماس جيفرسون ذات مرة:

أن تأخذ من أحدهم للاعتقاد بأن صناعته وصناعة آبائه قد أعطته الكثير جدا. من أجل أن توفر للآخرين الذين لم يمارسوا. هم أو آباؤهم. صناعة أو مهارة مماثلة. فهذا ينتهك بشكل اعتباطي المبدأ الأول للاتفاق: «أن يضمن لكل فرد الممارسة الحرة لصناعته، والثمار الناتجة عنها».

لكن رئيسنا الحالي يؤمن بأن «هذه هي اللحظة التي نبني فيها أرضية الثروة التي خلقتها سياسة الأسواق المفتوحة، ونتشارك منافعها بقدر أكبر من المساواة. لقد كانت

المال والنفوذ

التجارة دوما حجر الأساس لنموننا وللتنمية العالمية. ولكننا لن نكون قادرين على نؤازر هذا النمو إن كان يفضل القلة لا الكثرة».

لقد كتبت الروائية والمفكرة آين راند عن هذه الفكرة ذاتها في روايتها (أطلس يستريح). الكتاب الذي تنبأ بما سيقع إن تعرض جميع من يتولى العملية الإنتاجية إلى مثبطات تكفي لحثهم على التوقف عن الإنتاج فلا يبقى إلا المستجذون. أو كما يدعوهم اليسار التقدمي «من يتلقون خدمات أقل». وفي النهاية ستكون القضية برمتها معلقة على عاتق شخص واحد. فكيف يكون الحال إن استراح أطلس؟

أو. فلنقل: كيف يكون الحال إذا أصبح الجميع فاسدا وثمانيا بالسلطة وأموال خطة التحفيز بما يكفي لكسب الرضى والاستمرار في الحكم سنوات وسنوات من خلال إعادة الانتخاب؟ وهذه ظاهرة كتب عنها مايك رويكو في كتابه (الزعيم) ودعاها بـ«سياسة الآلة» أو «آلة دالي». وفيها يكون الناس خائفين جدا من مواجهة «الآلة» أو ليست لديهم السلطة والنفوذ اللازمين لهزيمة «سياسة الآلة»: وأنا أنصح بقراءة الكتاب للحصول على فهم أفضل للفساد السياسي.

مع التفكير مليا في السيناريوهات المحتملة السابقة يجب أن ننتبه إلى ما يلي: إن الدين الذي نمرره إلى أجيال المستقبل سوق يثبط عزائمهم. وستذهب أموالهم إلى الحكومة لدفع الدين الذي نتسبب به اليوم. دين الأموال التي أتاحت في أيدي السياسيين الفاسدين لإعادة التوزيع. والأموال التي ستضمن إعادة انتخابهم من قبل أكثر الفئات انتفاعا من تبديدها. وستكون أجيال المستقبل من المنتجين (الرأسماليين) عاجزة عن تجميع الثروة أو جمع ثمار صناعتها. إن بإمكاننا اليوم أن نوقف عملية إرهاب أجيال المستقبل بالدين ونقضي على الفساد. وإلا فلنغن مع فرقة بينك فلويد أغنية «مرحبا بكم إلى الآلة».